قافلة الضياع

أرأيت قافلة الضياع ؟ أما رأيت النازحين ؟
الحاملين على الكواهل ، من مجاعات السنين ،
آثام كل الخاطئين ،
النازفين بلا دماء ،
السائرين إلى وراء
كي يدفنوا (هابيل) وهو على الصليب ركام طين ؟
— «قابيل ، أين أخوك ؟ أين أخوك ؟ »
حمّمت السماء
آمادها لتصيح . كوّرت النجوم إلى نداء :
— « قابيل ، أين أخوك ؟ »
— « يرقد في خيام اللاجئين ،
السلّ يوهن ساعديه ، وجئتُه أنا بالدواء ؛
والجوع ، لعنة آدمَ الأولى وإرثُ الهالكين ،
ساواه والحيوانَ ثم رماه أسفل سافلين ،
ورفعته أنا بالرغيف ، من الحضيض إلى العلاء . »

* * *

الليل يُجهض ، والسفائن مثقلاتٌ بالغزاه :
بالفاتحين من اليهود ،
يلقين في حيفا مراسيهنّ — كابوسٌ تراه
تحت التراب محاجر الموتى فتجحظ في اللحود .
الليل يُجهض ، فالصباح من الحرائق ... في ضحاه »
الليل يُجهض ، فالحياه
شيءٌ ترجّح لا يموت ولا يعيش ، بلا حدود ،
شيءٌ تفتّح جانباه على المقابر والمهود ؛
شيءٌ يقول : « هنا الحدود !
هذا لكلّ اللاجئين ، وكل هذا ... لليهود ! »

* * *

النار تضرخ في المزارع والمنازل والدروب ؛
في كل منعطف تصيح : « أنا النضار ، أنا النُّضار ! »
من كل سنبلة تصيح ومن نوافذ كل دار :
« أنا عجل (سيناء) الإله ، أنا الضمير ، أنا الشعوب ،
أنا النضّار ! »
النار تتبعنا ، كأنّ مُدى اللصوص وكل قطّاع الطريق
يلهثن فيها بالوباء ، كأنّ ألسنة الكلاب
تلتزُّ منها كالمبارد ، وهي تحفر ، في جدار النور ، باب
تتصبّب الظلماء كالطوفان منه ؛ فلا تراب
ليعاد منه الخلق ، وانجرف المسيح مع العباب .
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق
يسدّ ما حفرته ألسنة الكلاب ،
فاجتاحه الطوفان : حتى ليس ينزف منه جنبٌ أوجبين
إلاّ دجى كالطين ، تبنى منه دور اللاجئين .
النار تركض كالخيول وراءنا . أهم المغول
على ظهور الصافنات ؟ وهل سألت الغابرين
أروّضوا أمس الخيول ؟
أم نحن بدء الناس : كل تراثنا أنصابُ طين ؟

* * *

النار تصهل من ورائي ، والقذائف لا تنامُ
عيونهُا ، وأبي على ظهري ، وفي رحمي جنين
عريانُ دون فم ولا بصر ، تكوّر في الظلام
في بركة الدم وهو يفرك أنفه بيدٍ . وكالجرس الصغير
يرنّ ملءَ دمي صداه — تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى أكاد أراه في غبش الدماء المُستنير
عريانَ دون فم ، كأفقر ما يكون : بلا عظام
وبلا أبٍ ، وبدون حيفا ، دون ذكرى — كالظلام !

أسريتُ أعبر ، تحت أجنحة الحديد، به الزمانَ
من الحقول ، إلى المراعي ، فالكهوف ؛
والأرض تطمس ، من وراء ظهورنا ، كالأبجديّه ،
الدور فيها والدوالي شاخصاتٌ كالحروف .
فكأنّ أمسِ غدٌ يلوح ، وليس بينهما مكان.
لم يُخرجونا من قرانا وحدهنّ ولا من المدن الرخيّه :
لكنّهم قد أخرجونا من صعيد الآدميّه !
فاليوم تمتلىء الكهوف بنا ، ونعوي جائعين ،
ونموت فيها لا نخلّف للصغار على الصخورِ
سوى هُبابٍ ما نقشنا فيه من أسد طعين !
ونموت فيها لا نخلّف بعدنا حتى قبور ؛
ماذا نخطُّ على شواهدها ؟ أ.. «كانوا لاجئين» ؟
اليوم تمتلىء الكهوف بنا : تُظلّل بالخيامِ
وبالصفيح ، وقد تغلفهن بالآجرّ دور ،
والنور كالتابوت فيها ، ليس فيه سوى ظلام .

* * *

بين الكهوف وبين حيفا ، من ظلامٍ ألف عام أو يزيد .
بين الكهوف وبين أمس هناك ، بئرٌ لا قرارَ
لها ، كهاوية الجحيم تلز فاها دون نار ،
تتعلق الأجداث فيها كالجلامد في جدار ،
لحداً على لحد ، أزيح الطين عنها والحجار .
من يدفن الموتى وقد كُشفوا وماتوا من جديد ؟
من يدفن الموتى ،
ليولد ، تحت صخرة كل شاهدة ، وليد ؟
من يدفن الموتى ، لئلا يرحموا باب الحياةِ
على أكف القابلاتْ ؟
من يدفن الموتى ، لنعرف أننا بشرٌ جديد ؟
في كل شهر من شهور الجوع يومئ يومُ عيد ،
فنخفُّ نحمل ، من « تذاكرنا » ، صايبَ اللاجئين :
— « يا مكتباً للغوث في سيناء ، هبْ للتائهين
منّاً وسلوى من شعير ، والمشيمةَ للجنين ،
واجعل له المطاط سره ،
وارزقه ثدياً من زجاج ، واحْشِ بالأدريج صدره ! »

* * *

وبأيّنا لغة نقول فيستجيب الآخرونَ
ونورث الدم للصغار ؟
أعلمتَ — حين نقول : دار أو سماء — أيّ دارٍ
أو سماءٍ تخطران على العيون ؟
هيهات ، ليس للاجئين ولاجئاتٍ من قرار
أو ديار ،
إلاّ مرابع كان فيها أمس ، معنى أن نكون .
سنظل نضرب كالمجوس نحسُّ ميلاد النهار !
كم ليلة ظلماء كالرحم ، انتظرنا في دجاها ،
نتلمس الدم في جوانبها ونعصر من قواها ،
شعّ الوميض على رتاج سمائها مفتاحَ نار ،
حتى حسبنا أن باب الصبح يُفرج — ثم غارَ
وغادر الحرسُ الحدود.
واختضّ رعدٌ في مقابر صمتها يعد القفار ،
ثم اضمحل إلى غبار بين أحذية الجنود .
الليل أجهض : ناره الحمّى ودمته انتخاب الضائعين ،
الليل أجهض : ليس فيه سوى مجوس اللاجئين ،
الليل ... كلا ! ماهناك ؟ انظرْ — تضوّأت السماءُ
بنور نجم كالصليب ، هو الخلاص ! هو الفداء !
وُلد (الفدائيون) ، بابُ غد ،
فلا غدَ لليهود !

بغداد — **بدر شاكر السيّاب**

الدكتور وليد قمحاوي

يلقي اضواء قوية
على الواقع العربي
في كتابه الخطير :

النكبة والبنـاء

نحو بعث الوطن العربي

•

صدر حديثاً
عن
دار العلم للملايين